ظاهرة الاغتراب ووصف الصحراء عند شعراء الجنوب الجزائري

The phenomenon of alienation and description of the desert among the poets of southern Algeria

طالبة الدكتوراه/ صباح بريم

أ. د/ إدريس بن خويا

قسم اللغة والأدب العربي جامعة أحمد دراية- أدرار - الجزائر

مخبر الانتساب: مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا، جامعة أدرار.

benkhoia.idriss@gmail.com *berrimsabah@gmail.com*

تاريخ الإيداع: 2020/10/09 تاريخ القبول: 2021/04/17 تاريخ النشر: 2021/09/15

الملخص: تعد ظاهرة الاغتراب واحدة من أبرز القضايا البارزة على الساحة الأدبية المعاصرة، كانعكاس للتغيرات الحاصلة في النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي...، وما خلفه ذلك على ذات المبدع. ومن خلال هذه الورقة البحثية سنرى علاقة الاغتراب بصورة الصحراء. هذه الأخيرة التي تحظى بمكانة بارزة وبحضور مميز عند شعراء الجنوب الجزائري، و انحصار وجودها وتلاشي الكثير من ملامحها في الحياة اليومية، هو ما يجعلها ترتبط بحالة الاغتراب بشكل وثيق.

الكلمات المفتاحية: صورة الصحراء، الاغتراب، الجنوب الجزائري، الاغتراب الذاتي، الاغتراب الاجتماعي، الاغتراب الوجودي.

Abstract The phenomenon of alienation is considered one of the most prominent issues in the contemporary literary scene. It reflects the changes taking place in the social, political, economic and cultural system and their impact on the poet himself.

Through this research paper, we will highlight the relationship of alienation with the image of the Sahara which has a distinguished presence among the South Algerian poets in spite of its limited existence and the disappearance of some of its features in daily life. This makes it closely related to the state/feeling of alienation

key words Desert image, Alienation, South Algerian poets, Self-alienation. Social alienation, Existential alienation

تمهيد:

تحظى صورة الصحراء بعناية خاصة من قبل شعراء الجنوب، الذين تربوا في أحضانها، وظلت حاضرة في أشعارهم تتحدى الاندثار. وقد برزت صورتها في القصائد مشبعة بظاهرة الاغتراب، ومن خلال هذه الورقة البحثية سنسعى للكشف عن هذه العلاقة وأسبابها، وسنحاول الإجابة عن التساؤلات الآتية: كيف استخدم الشعراء صورة الصحراء للتعبير عن الاغتراب؟

1- الصورة الشعرية والصحراء:

يقدم جابر عصفور تعريفا للصورة الشعرية يقول فيه: هي "أداة الخيال ووسيلته ومادته الهامة التي يمارس بها ومن خلالها فاعليته ونشاطه"[1]، ويركز في تعريفه على دور الخيال في تشكيل الصور، فهذه الأخيرة لا تقف عند العلائق التي يراها العام والخاص، وإنما ما يكتشفه العقل مستخدما الخيال في الرؤية والتشكيل، والصورة الفنية عنده هي"طريقة خاصة من طرق التعبير، أو وجه من أوجه الدلالة، تنحصر أهميتها فيما تُحدِث في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير، ولكن أيا كانت هذه الخصوصية، أو ذلك التأثير فإن الصورة لا تغير من طبيعة المعنى في ذاته "[2] ، فتعدد الصور لموضوع ما لا تغير من حقيقة الموضوع، وإنما تظهر حقيقة نظرة الشاعر له، وكيفية تفاعل ذاته معه. والحياة كيان مركب ومعقد، لا تشترك في تكوينه فقد عناصر وأجزاء منسجمة، وإنما الواقع مليء بالمتناقضات، وليس للشاعر مزية في ما يصنع إلا من خلال ما يستطيع أن يعبر به عن الحياة بكل ما تحويه، وأن يظهر الحقائق والعلاقات، وأن يقدمها بمظهر منسجم وجميل، لتصبح الصورة الممنوحة لنا من خلال قراءة القصيدة ملكنا فعلا، وتتجذر في داخلنا، وتصبح جزءا من تجاربنا الشخصية. وإن كان من منحنا هذه الصورة إنسان آخر، ولكننا نشعر أنه كان بإمكاننا أن نخلقها، بل كان علينا أن نخلقها بالفعل. إن الصورة تصبح وجودا جديدا في لغتنا، هنا يخلق التعبير عن الوجود[3].

والشاعر يتخذ من الطبيعة عامة ومن الصحراء خاصة منبعًا لصوره الشعرية، فتكون مصدر معطياتٍ لحواسه ووسائطَ فنية يجعل منها محمولات لمشاعره وأفكاره، وقد يكون ذلك إما عن وعي منه بذلك قاصدا له، كما يمكن أن يكون مدفوعا إليه عن طريق عقله الباطن[4]، وبذلك تتداخل البيئة الصحراوية التي أَلِفَها الشاعر مع مكونات قصائده، فتأتي أعماله مشبعة بـ "ذكر الأشجار والنباتات ... ومفردات الأكل والصيد والقرى والظعن والرحيل والراح والأمطار،

وتتفاعل كل هذه المكونات تحت قبة الصحراء لتأتي قصائدهم مشبعة بصور وتشبيهات رائعة مستمدة من البيئة الصحراوية" [5].

وتحمل الصحراء في نفس المبدع صورة بوجهين؛ "يرتبط الأول منهما بمعاني الوحشة والرهبة، ويتمثل الآخر في البحث عن بصيص الأمل الذي يحدو الشاعر في انطلاقه عبر آفاق هذه الصحاري الشاسعة والمجدبة"[6]، فيقف الشاعر منها تارة موقف الرهبة والخوف، ونراه تارة أخرى يرى فيها منبعا للأمن والأمل والسكينة. وتتجلى صورة الصحراء في القصائد من خلال تشكيلها وإعادة صياغتها عن طريق الخيال، الذي يعكس رؤية المبدع، حيث تتحرر الصحراء من كونها بعدا مكانيا، لتتحول إلى كيان حي ومتحرك، وتمثل للشاعر الملاذ الذي يأوي إليه متى فقد الراحة في غيره من الأماكن، وهو أمام فقد بعض أو كل ملامحها على المستوى البيئي أو الاجتماعي...، نجده يلجأ لخياله ليعيد رسمها في صورتها المشتهاة، لتتحقق لديه في واقعه اللغوي على أرض القصيدة، وإن لم تتحقق في واقعه المعاش. وهذا التداخل بين الصحراء وذات المبدع ليس حديثا في الشعر؛ فقد "كان لها ذلك الأثر في نفوس الشعراء حيث تجلت من خلال قصائدهم إذ لم تختصر أثرها على الحياة الاجتماعية أو الأدبية أو الاقتصادية أو اكتساب البطولة والشجاعة فحسب بل امتد أثرها في قصائدهم الشعرية التي تعبر عن كل موقف نفسي يسيطر على الشاعر"[7].

2- مفهوم الاغتراب

أ. **لغة** تستخدم لفظة الاغتراب بمعنى الابتعاد عن الوطن والأهل، ووردت الكلمة في معجم الصحاح تحت مادة (غ ر ب) "(الغُرْبَةُ الاغْتِرَابُ) تقولُ (تَغَرَّبَ) أو (اغْتَرَبَ) بمعنى فهو (غَرِيبٌ) و(غُرُبٌ) بضمتين والجمع (الغُرَبَاءُ). والغُرَبَاءُ أيضا الأَبَاعِدُ. و(اغْتَرَبَ) فَلانٌ إذا تَزَوَّج إلى غير أقاربه... و(التَّغْرِيبُ) النفي من البلد...ويقال (أغْرب) عني أي تباعد[8].

ب. **اصطلاحا**: الاغتراب ظاهرة قديمة في الأدب، ولا زالت تحتل مساحة كبيرة في أدبنا اليوم، ومصطلح الاغتراب يستخدم مقابلا في اللغة العربية "للكلمة الإنجليزية (alienation) والكلمة الفرنسية (alienation)... وكلاهما مستمد من الفعل اللاتيني (alienare)، والذي يعني نقل ملكية شيء ما إلى آخر، أو يعني الانتزاع أو الإزالة، وهذا الفعل مستمد بدوره من كلمة أخرى هي (alienus) أي الانتماء إلى شخص آخر، أو التعلق به، وهذه الكلمة الأخيرة مستمدة في النهاية من اللفظ (alius) الذي يدل على الآخر سواء كاسم أو كصفة..."[9] يمتاز مصطلح "الاغتراب" بالغموض والتشتت والإبهام؛ بسبب تعدد استخداماته التي تشمل جل نواحي الحياة. ويكون الاغتراب في صورة:

_ تصدع ذهني: ويشار إليه بغياب الوعي في الإنجليزية وكذا تطلق على الشخص الغير سوي نفسيا، وبنقص الصحة لعقلية في الألمانية[10]، وفي كلا الحالتين فالإنسان المغترب _هنا_ يعيش حالة نفسية تفصله عن واقعه؛ فهو غير قادر على إدراكه لعلة ما.

_ اغتراب داخلي: ويرتبط بالعواطف الإنسانية، فتصبح العلاقة بالآخرين فاترة، كما ورد في معجم أكسفورد الحديث بمعنى عدم الصداقة [11].

- انتقال الملكية: بمعنى أن يصبح الشيء (الذي كان ملكك يوما) غريبا عنك، لأنه خرج من إطار ملكيتك لغيرك.[12]

وفي اللغة العربية تم استخدام مصطلح (الغربة) في سياقين: ديني، ونفسي اجتماعي. من الجانب الديني فتعبر عن انفصال الإنسان عن خالقه، وهو ما عبر عنه في القرآن دون ذكر للفظ صراحة، كما في قصة آدم عليه السلام، وأول ظهور لها كان على يد المفكر الهندي حسن العسكري، وذلك حين أراد ترجمة قصة الخلق في القرآن وفكرة انفصال الإنسان عن الله، حيث استخدم الكلمة الألمانية (entfremdung) والتي ترجمت الآن بـــ(الاغتراب)[13].

أما السياق الآخر (النفسي- الاجتماعي) فهو معنى متداول منذ القدم، حيث نجد شعور الغربة عند الشعراء الذين حرموا العيش بين أفراد قبيلتهم، كما نجده في وعيهم بالموت كنهاية حتمية للإنسان، والاغتراب حالة "تتصل بمشكلات التفكك الاجتماعي والثقافي والسياسي، وتدهور القيم، والتبعية، والطبقية، والطائفية والفئوية، والسلطوية، فتسود علاقات القوة والنزاع بدلا من علاقات التعايش والتضامن والتفاعل الحر والاندماج الطوعي..."[14]، لتضع الإنسان في حالة تصدع بينه وبين الكيانات المحيطة به، وأحيانا بينه وبينه ذاته خاصة عندما يرغمه العالم من حوله على أن يعتنق صفات ومعتقدات لا تمثل حقيقة رغبته ونظرته لنفسه. وتتميز كلمة اغتراب باستخدامها الواسع النطاق لتشمل عدة ظواهر مثل: "فقدان الذات، حالات القلق، الانتحار، اليأس، استلاب الشخصية، اقتلاع الجذور، اللامبالاة، الوحدة، فقدان المعنى، العزلة، التشاؤم، فقدان القيم والمعتقدات"[15]، وبوقوع الإنسان داخل حيز هذه الظاهرة، يفقد الألفة بما يحيط به، ويصبح رهين حالة من اللااستقرار، يكون بحاجة لإيجاد وسيلة ما يجابهها به، ليستعيد توازنه ويستطيع مواصلة حياته.

الاغتراب "شعور يلازم النفس الإنسانية مقتضاه الشعور بالبعد والوحشة والانفراد، وهو يولد تفسيرا للحياة يمضي إلى اليأس ومناشدة حياة جديدة يصورها الوهم أو الخيال أو الأمل أو الحلم..."[16]، فالهروب من الواقع يحمل اتجاهين؛ الأول أن يمضي المبدع في عالم

الخيال والأحلام ليبني لنفسه مملكة يشعر فيها بالانتماء، وفق ما يحتاجه ويرى أنه مفقود في واقعه المعاش، والاتجاه الآخر يمضي نحو جذوره الأولى، ليلوذ بـ "الحنين إلى الطفولة والجذور كنوع من الهرب من واقع الحال، أو عدم القدرة على تحقيق الأحلام..."[17]، فهو يرى بأنه ليس بحاجة لبناء عالم جديد في حين أن العالم الذي عاش فيه طفولته مازال موجودا في مخياله، ويحمل في ذاته اتجاهه مشاعر إيجابية ويراه العالم المثالي، خاصة وأنه قد ارتبط عنده بالسعادة والمحبة.

3- أشكال الاغتراب وعلاقته بصورة الصحراء:

يأتي الاغتراب في عدة أشكال أكثرها تداولا: الذاتي والاجتماعي، والوجودي[18].

أ- الاغتراب الذاتي: (self estrangement):

ويعني ذلك الإنسان الذي لا يمتلك ذاته[19]، ويرى أنه يعيش وفق ما يسطره الآخر له، فيشعر بغرابة ذاته المحققة في الواقع عن ذاته التي يرى نفسه عليها.

يقول بشير ميلودي* في قصيدة (شهقة الماء) مخاطبا أخاه:

لقد كنتَ قبل الخواءِ
عتيدا
وحولك غنتْ
عذارى النخيل
لقد ضعت وحدك بي الشرود
وضيعت عمركَ دون صهيلْ[20]

يصف الشاعر الواقع الذي يعيشه أخوه بالخواء، ويربط بين حالة القوة والصلابة التي كان يعيشها بالبيئة الصحراوية المحيطة به حينها، وبابتعاده عن الصحراء ينتقل للعيش في خواء في عالم مجرد من الجذور والأصالة.

وأيّ امتدادٍ لك يا خليلْ

فمن ستعانقُ غير الصحاري

وكثبان رملٍ

تشي بالثقيل[21]

إن معنى الأخ والخليل قد ينفتح على عدة شخصيات بما فيها الشاعر نفسه، ليقف مخاطبا إياها كمن يخاطب شخصا آخر منفصلا عنه، حوار بين اثنين؛ المخاطِبُ هو ذاته كما يريدها والمخاطَبُ هو ذاته المشوهة بفعل عوامل خارجية مفروضة عليها، حيث تبدو الشخصية الثانية غريبة عنه لا تحقق وجوده كما يريده، فيظلل هذا الانفصام حياته بطعم الاغتراب. والاختلاف الجوهري بين الذاتين يرتكز على "الصحراء"، فتخلي هذا "الخليل" عنها هو ما يجعله يعيش في غربة، فبحثه عن الحياة بعيدا عنها، لا يعود عليه سوى بالاغتراب. ليقدم له الشاعر ملاذا من واقع لا ينتمي إليه، ويدعوه إلى إعادة الصلة بينه وبين الصحراء، هناك فقط سيجد ذاته ويستعيد نبض الحياة.

ب- **الاغتراب الاجتماعي**: (social alienation):

ويعني أن يكون الإنسان غير قادر على العيش وسط مجتمع، فينعزل عن غيره ويكتفي بنفسه[22]، والشاعر هنا يتمسك بذاته بصورتها الأصيلة كما يرى نفسه وكما يريد لها أن تكون، وفي ظل سعيه للحفاظ عليها يسعى لحمايتها من الآخر (المجتمع) الذي يريد طمس اختلافه ومسخه على شكالة أفراده، ولتحقيق الشاعر لمسعاه نجده يميل إلى الاتصال بالماضي بحثا عن وسط بديل يستشعر الألفة والانتماء في ظله. وهو ما نجده عند مبروك بالنوي[*] في قصيدة (تن هنان وخيام البدء):

قفي تن هنان الشـــوق عندك علّلـي لمـــــاذا أهقـــار الشموخ تلثمـا
أعيدي على القوم استرابوا عمامتي عمامتي كأن لم يروا قبلي نبيلا معممـــــا[23]

إن الريبة التي أحاطت بالشاعر حول مظاهر هويته الصحراوية؛ المتمثلة في "العمامة" كعلامة مميزة للرجل الأزرق، وهي أول ما يلفت نظر من يراه، ولم يقابل الشاعر هذه الريبة والنفور بالتخلص منها، وإنما زاده ذلك تمسكا بها،ويتخذ الشاعر من الماضي وسيلة لمجابهة هذا الرفض من الآخر، وللتواصل مع ماضيه يختار شخصية "تن هنان" (ملكة قبائل الطوارق) ليحاورها بحثا عن إجابات تعلل حالة الانفصال عن الآخر التي يعيشها الصحراوي والصحراء؛ وما ينجر عنها من شعور بالاغتراب عن باقي المجتمع لأن هذا الأخير يرفض كل مختلف عنه ويضعه موضع الريبة.

أجل تن هنان الوجد ضيعت وجهتي علّلـي وفـي زمنـــي يـــزداد دهري تورّمـا[24]

وفي سعي الشاعر لمواجهة هذا الشعور، لا يكتفي باستحضار شخصية تن هنان في مخياله، ليصنع معها لوحة تخفف وطأة الضياع لمن فقد وجهته، وإنما يتخذ من ضريحها وجهة بديلة عن واقع ومجتمع يرفض له الاندماج داخله ما لم يتحرر من اختلافه، في مقابل إصراره على التمسك بهويته ويرفض المساومة عليها، ويسير نحو ماض يشعر اتجاهه بالانتماء، ويرى فيه نفسه كما يريد لها أن تكون:

أيمم وجهي للضريح لعلّني علّني أطيب بعطر البدء عشقا مسلّما
وأحضن أسلافي بشوق مجنح بسر مقام البوح لن يتكلما يتكلّما
نعيدك من منفاك من سجن غربة إلى قصرك العالي لينسى التجهُّما[25]

يعيد الشاعر بناء مجتمع آخر، مجتمع يقبله كما هو، يكون الضريح موقعه، وأسلافه هم أفراده، لتكتمل هذه اللوحة باستحضار "تن هنان"وما تحمله من صفات القوة والأصالة وحققته من انتصارات، ما سيعيد ازدهار الحياة ويمسح عنها التجهم، ويعيد للصحراء وأبناءها عزهم وكرامتهم.

ومن الشخصيات التي يستدعيها الشاعر مبروك بالنوي ليبوح لها بشعوره بالاغتراب الشاعرة "داسين" في قصيدته (بوح على إمزاد داسين)، والتي يقول فيها:

يا حادي العيس ما للبيد ينعصر ونبض داسين في الأسحار ينفطر
منك الحداء بنزِّ الشدو مختمر فجرحه كيف لا يعرى ويأتزرُ
هزّ الحداء فها أزجيت راحلَتِي تسترهف السمع لما الصوت ينحصر
ها موغل في مدى الأبعاد منحدر صوب الطوارق جرحا ضاء يستعرُ
وممعن في صحاري الوجد يفضحني هذا الحنين فكيف النار تختمر
ها موغل وارتعاش الرمل في كبدي في مقلتي في دمي في القلب ينتشر[26]

ينطلق الشاعر في قصيدته من تحديد ملامح الواقع الذي تولدت عنه، فتقلص مظاهر الصحراء وتواري كثير من ملامحها أدى إلى إنتاج لحن حزين، وهو ما يجعله يستحضر (داسين) أول سيدة عزفت على آلة الإمزاد، المعروفة بألحانها الحزينة التي تعزف وقت الخروج للحرب.

تتداخل الحالة النفسية والشعورية للشاعر مع صورة الصحراء؛ فيجعل الوجد صحراء والرمل نبض الحياة في كبده ومقلته ودمائه وقلبه، وتسجل صورة الصحراء حضورا قويا في

هذا المقطع بشكلها القديم من خلال استخدام كلمات كالحداء، راحلتي، الطوارق، النار، وتتحول الصحراء إلى أداة تعينه على تحديد ملامح حالة الاغتراب التي يعيشها، وذلك لأن الصحراء تعكس انتماءه الذي يجابه من خلاله شعوره بالاغتراب والانفصال عن المجتمع وما يخلفه ذلك من إحساس بعدم الانتماء له فيسعى لتعويض ذلك بالتركيز على انتمائه للصحراء، فيعود الشاعر إلى الصحراء كصورة بكر في ذهنه وكأجزاء وبقايا من واقعه، ليتمسك ويحتمي بها، بعد أن وقع التصدع بيه وبين مجتمعه، ليحمل نفسه مسافرا إلى أحضان الصحراء واقعا حقيقيا ولغويا.

وفي مثال آخر من قصيدة (على إيقاع الرّحيل) لمصطفى صوالح*** يقول في مطلعها:

أنـــا الحرف المســـافر في كتابك أحـــــــاور في تراكيبي عذابـــكْ
وأعلـــــــم أنّني ســـــافرت فردا لأعـــزف للمجابـــهة انسحابـــكْ
أمشط صمتـــــــك الـ.. يجتاح عمري لأرشـف فـي الغيابـــات انتحابكْ[27]

يعلن الشاعر في هذا المقطع على حالة الوحدة وسفره فردا، و تضفي كلمات كـ(عذابك، انسحابك، صمتك، انتحابك) طابعا مظلما وحزينا يعكس ما يحدث في نفس الشاعر أثناء سفره، إلا أن ذلك لا يعني استسلامه، فهو يقف لمجابهة كل ذلك، وهذه الحالة التي يعيشها إنما هي خياره في سعيه لمجابهة واقع لا يرضاه، ما يجعله يعيش حالة اغتراب يتشارك فيها مع "النخيل":

وعـــن حبّ يسافر بي بعيـــــــدا لتكشـــف غربةُ النخـــلات غابـــكْ
أحنّ لوجهـــك الوضّـــاح شمســـا لأرســـم سمـــرة نزفـــت ترابـــكْ
فصمـــت النّاي يسكننـــي صهيـــلا تَجَذَّرَ صهوة تتلـــــو غيـــابـــك
أبـعثر صوتـي المنســـاب حـــزنـــا وأنـثرُ غربتـي الـ. سكنـت رحابـك[28]

تتجلى صورة الصحراء في هذه الأبيات من خلال توظيف مجموعة من الكلمات: (النخلات، شمسا، سمرة، صهيلا، صهوة)، وتأتي كل واحدة منها في سياق اغترابي؛ فربط النخلات بالغربة، والشمس وبالحنين (أحن)، والسمرة بالنزف، والصهيل بالصمت، وكأن الصحراء تقف مع الشاعر وتتقاسم معه حالة الاغتراب. ولهذا يعمل الشاعر على توظيف هذه الكلمات كوسائل تساهم في رسم ملامح التجربة التي يعيشها، ما يعكس قوة الصلة بينهما حتى أصبح يتحدث بالصحراء، كما أن شعوره بالاغتراب يفرض عليه حالة من الأسى تدفعه للانعزال في الصحراء

كحيز ينتمي إليه ويقبله دائما ويمنحه مساحة للخلوة بنفسه ويدفعه للتأمل في ذاته وفي الآخر، ليُبرز ذلك الصحراء كواقع لغوي في القصيدة وتتحول إلى رموز تكشف عن مكنونات نفسه.

أما في قصيدة (في ذمة الخلود) يتخذ بشير ميلودي من الصحراء منفى له من عالم يرفضه، ليعيش في أرجائها في قلق وحيرة:

نُبؤاتي الكلماتُ صوتُ نخيلـــــي وعلى شظايا الماء لـــون أصيلـــــي [29]

منفاي في عطشِ الجنـــوب وغربتـــي قلق الغيـــاب وحيـــرتـي إكليلـــي [30]

سأظل أسترق الأمـــــاني والنـــدى يـا بحر فاصدغْ هـــاهنـــا بنخيلي

تذوي هنا الصحراء ذلك صمتهـــــا فلتستمعْ لأنينهِ الطاسيلـــــــي [31]

لا تقف الصحراء بعيدة عن ذات الشاعر؛ حيث تتدخل في تصوير حالة الاغتراب التي يعيشها، وتشترك معه في الحالة النفسية التي يخلفها ذلك لتقف أمام هذه المشاعر تئن في صمت، إن الواقع الذي تقدمه الصحراء كفضاء تربى فيه هؤلاء الشعراء يظل خيارا وسبيلا مفتوحا أمام رجوعهم إليه بعد أن يصطدموا بواقع مغاير خارجها ليتجرعوا أمامه شعورهم بالاغتراب، فتتحول الصحراء أمامهم إلى ملاذ ينغلق عليهم ويعيشون فيه كمنفى اختياري بعيدا عما يسعى الآخر لفرضه عليهم.

ت- **الاغتراب الوجودي**: (existentialist alienation)

يستخدم هذا المصطلح في ميدان الأدب والفن للتعبير عما يشعر به الإنسان المعاصر من غربة كونية، وهذا راجع لما يراه في علاقات الكثير من البشر من سلوكيات سلبية كالاستغلال والاحتقار... [32]، فالمبدع يرفض هذه السلوكات ويرى نفسه منفصلا عنها، وهو ما يبعث فيه روح الاغتراب وإن كان في وطنه، فيرى العالم من حوله أصبح غريبا ولا يستطيع الاندماج فيه، ولا يملك القدرة على التكيف معه ولا القدرة على إعادته إلى الصواب وفق ما يراه. ويختلف الاغتراب الوجودي على الاجتماعي في أن الأول مرتبط بكل الواقع، في حين يرتبط الآخر بالأفراد والعلاقات التي تربط بينهم داخل المجتمع.

وكمثال عليه نأخذ قصيدة (لغة بلون الماء (متسع للحلم)) لمصطفى صوالح التي يفتتحها بإهداء إلى الشخصية التي يخاطبها: إليك في ذكرى رحيلك الكبير...[33] ، ثم يتوجه له بالخطاب دون أن يكشف عن هويته للقارئ:

منذ أكثر من ألف عام

كنت سيّد هذا المكان

لم يكن صوتك العامر

بالحبّ

يدري أن الذين

اعتراهم وهم صَلبك راحلون...[34]

يحدد الشاعر الإطار الزماني والمكاني الذي عاشت فيه هذه الشخصية (قبل أكثر من عام، هذا المكان)، ثم يقدم وصفا للحالة التي كان عليها، لينتقل في المقاطع اللاحقة لوصف ما آل له مآل ذكراه بعد رحيله:

باعوا ترابك
دنّسوا ذكراكْ...
مصلوبا
على عقرب الأمنيات
أضاعوا الطريق
إليك...[35]
وحدك الآن
على قارعة الصّمت ...
هم الآن يحتفلون
يرقصون على جثة الوقت
على أشلاء سمرتك المتعبة
حين ألقوك أرضا[36]

يخاطب الشاعر هذه الشخصية وكأنها ماثلة أمامه، ويسرد عليها ما فعلوه بها أو ما فعلوه يذكراها، فيشكو لها تقلب الحال، وكيف خانوها وخانوا التراب، ورغم ذلك لا يأبهون لذلك ولا يدركون قيمة ما قد أضاعوا، فتقف هذه الشخصية بانجازاتها غريبة وسط واقع جديد:

الذين اقتلعوك من جذور الصمت...
لم يحفظوا الأرض
لم يصونوا العرض
واستباحوا دماك...
كنت أكبر منهم
حين ألقوك في الجبّ
هم غربوا المعنى
واستباحوا المفردات
عقبة آخر
لا القيروان التي كنتها[37]
كنت السنا
يستل
ما دسّه الرمل
في غربة الحرف بُراقا
حطّ في صحراء سكرتنا...[38]

يصرح الشاعر في هذا المقطع اسم شخصيته (عقبة بن نافع) ، ويتخذ منها وسيلة للتعبير عن الاغتراب الذي يعيشه كل إنسان واع بحجم الخيبة التي وصلنا لها، فزمان الانتصارات وبناء الحضارة أصبح من الماضي، ولم يكتف هؤلاء باستسلامهم وتخاذلهم وإنما امتدت يديهم لذكرى السابقين وسعت لتشويهها وطمس انتصاراتها، لتعيش رغم رحيلها قبل مئات السنين في اغتراب وهي في أرضها وبين أهلها. أما الصحراء فتبرز أولا من خلال كلمة "الرمل" التي تقف كفاعل يحمي بقايا العروبة ويدسها في حرف لم يجد من يفهمه لينقلها للأجيال القادمة، ووحده عقبة بن نافع قادر لأصالته أن يستل تلك المعاني. ونحن اليوم بحاجة لعقبة آخر لفهم تلك الكلمات. ومن ناحية أخرى تظهر الصحراء من خلال توظيفها كرمز يعبر عن شساعة عدم الوعي وحالة السُّكر التي تعمّ واقعنا اليوم، كما يربط الشاعر هذه الشخصية بابن الصحراء

من خلال التركيز على لونه بشرته(السمرة) في قوله (على أشلاء سمرتك المتعبة)، وفي ذلك ربط بين هذه الهوية وبين الانتصارات المحقق.

اغتراب الصحراء:

لا يختص الإنسان وحده بظاهرة الاغتراب، فالصحراء أيضا تعيش تحت وطأته، وتفتقد لصورتها الأصيلة التي تشتهي أن ترى نفسها فيها، والتي غابت بفعل التمدن وطرق الحياة الحديثة التي زحفت على أطرافها حتى كادت طمس كل ملامحها. وكذا لتخلي أبنائها عنها ونزوحهم نحو حياة المدينة التي أبهرت عيونهم وسلبت عقولهم. ترتبط فكرة الاغتراب عند الشاعر ابن الصحراء والبادية؛ بالنظرة السلبية للمدينة، حيث يراها منبع الشرور، وتتحول "عنده إلى عدو، وصاغ نظريته الشعرية تجاه المدينة على هذا الأساس، لذا تحولت المدينة إلى وحش يحاول أن يسحق الحساسية الشعرية التي يحملها الشاعر"[39] ، وهذه النظرة تعمق من النظرة الاغترابية التي يعيشها ابن الصحراء وهو يرى أن المدينة بملامحها تغزو كل بقاع الصحراء وتطمس وجودها وتمسخها لنسخة أخرى منها على المستوى البيئي والاجتماعي.

يقول بشير ميلودي في قصيدة (فاتحة الخيال):

مدينةٌ تبدلت بصمته الطويلْ
تبدّلت معالمُ المدينةِ
ونُفِيَ النخيلْ
لمن يعود هَا هُنَا
وقد رأى الأشباح في عزّ الأصيل[40]

إن ما يميز مدينة الشاعر الصحراوية عن المدن العصرية هو "النخيل"، إلا أن هذا الرمز الصحراوي ودليل الهوية لهذه المدينة قد غاب عنها، واستخدم الشاعر كلمة "نُفي" للدلالة على تخلي أصحاب النخيل عنه، فلم يعد يمثل بالنسبة رمزا لجذور انتمائهم وأصالتهم، ففقد (النخيل) بذلك سبب العودة، ليختفي من هذه المدينة و تقع صورة الصحراء في حالة اغتراب لا تجد أرضا تتحقق فيها.

يفتش بحيرة
في الرمل عن صديقه الحميمْ[41]
وكل أهل فارقوا المدار والمجالْ

سأرجع إليك يا مدينتي
لألعن الزوال
لأستعيد هيبتي
وضحكة الأطفال[42]

يدرك الشاعر أن في بعده عن الصحراء لا يفتقد البيئة فقط؛ وإنما يفتقد لطبيعته وإنسانيته، وليس له أن يجد هناك بعيدا عنها سوى "الزوال"، وهو إن أراد أن يستعيد هيبته وبراءة طفولته؛ يجب عليه أن يعود إلى الصحراء.

خاتمة:

في الأخير نجمل ما جاء في هذه الورقة البحثية في النقاط الآتية:

- تعمل صورة الصحراء في القصائد تارة كطرف يشارك الشاعر تجربة اغترابه وتارة أخرى كأداة تساهم في تشكيل ملامح الاغتراب الذي يعيشه.

- تنفرد الصحراء في بعض القصائد بحالة الاغتراب وتنوب فيها عن الشاعر. فما تعيشه هي ويجعلها غريبة في عالم يسعى لطمس معالمها؛ هو ما يلقي بتلك الحالة على الشاعر ليتشاركا في هذه التجربة. فالصحراء بالنسبة لأبنائها أكثر من مجرد فضاء جغرافي يحوي وجودهم، وإنما هي جزء من هويتهم وفاعل أساس يظلل حياتهم ويرافقهم في كل مراحلها، وهي إن غابت كوجود حقيقي بصورة جزئية أو كلية فإن وجودها في ذواتهم من خلال ما بذرته فيهم من صفاتها وطباعها لازالت حاضرة وستظل.

- إن جذور حالة اغتراب شعراء الجنوب الجزائري التي مررنا بها في الأمثلة الموظفة في هذا البحث تعود إلى انتمائهم للصحراء بشكل أو بآخر، إما بسبب رفض الآخر لهم الناتج عن رفض اختلافه مقابل تمسكه بهويته الصحراوية، أو بسبب افتقادهم للحياة الصحراوية بعد أن غادروها أو بعد أن غابت هي عنهم وعن الوجود لزحف مظاهر الحياة المدنية على ملامحها فغيبتها.

الهوامش:

[1] جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار التنوير، بيروت، لبنان، ط:02، 1983، ص19.
[2] المرجع نفسه، ص392.

[3] ينظر: غاستون باشلار،جماليات المكان، المؤسسة الجامعية للدراسات النشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط:02، 1984، ص22.

[4] ينظر: يحيى أحمد الزهراني، لصحراء في الشعر السعودي (أطروحة دكتوراء)، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 2002، ص55، 56.

[5] ينظر: محمد صديق حسن عبد الوهاب، الصحراء في الشعر الجاهلي (أطروحة دكتوراء في الأدب والنقد)، قسم الدراسات الأدبية والفنية، كلية الدراسات العربية، جامعة أمدرمان الإسلامية، 2008، ص137، 138

[6] ينظر: مسعود جوادي، الصحراء في الشعر الجاهلي بين التلقي الاستشراقي والتلقي العربي (مذكرة ماجستير)، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر،2009، ص29.

[7] محمد صديق حسن عبد الوهاب، مرجع سابق، ص210.

[8] الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد. الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، : أنس محمد الشامي، زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، مصر، ، (دط)، 2009، مادة (غرب)، ص197.

[9] يحيى العبد الله، الاغتراب –دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلّون الروائية، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، الأردن، ط:01، 2005، ص21.

[10] المرجع نفسه، ص21.

[11] ينظر: المرجع نفسه، ص21.

[12] ينظر: المرجع نفسه، ص22.

[13] ينظر: محمود رجب، الاغتراب سيرة مصطلح، دار المعارف، مصر، ط:03، 1988، ص40.

[14] حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية –متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط:01، 2006، ص08.

[15] حسن حماد، الإنسان المغترب عند إيريك فروم، مكتبة دار الحكمة، مصر، (دط)، 2005، ص08.

[16] محمود سليم هياجنة، الاغتراب في القصيدة الجاهلية- دراسة نصية، دار الكتاب الثقافي، الأردن، (دط)، 2005، ص17.

[17] المرجع نفسه، ص17.

[18] هناك أنواع أخرى للاغتراب لم ترد بشكل بارز في القصائد التي مررنا بها: الاقتصادي والاستهلاكي، وكذا الزماني واللغوي.

[19] يحيى العبد الله، مرجع سابق، ص24.

[*] بشير ميلودي شاعر من مواليد جامعة ولاية الوادي، يزاول الشعر منذ صغره، وله مجموعة من القصائد المنشورة في صحف وطنية، إلى جانب مشاركاته في العديد من الأماسي الشعرية والملتقيات الأدبية.

[20] بشير ميلودي، بقايا من شرود الضوء، مديرية الثقافة، ولاية الوادي، الجزائر، ط:01، 2014، ص30.

[21] المرجع نفسه، ص31.

[22] ينظر: يحيى العبد الله، مرجع سابق، ص25.

[**] مبروك بالنوي شاعر من ولاية تمنراست، من مواليد 1972 بعين صالح، يتجاوز رصيده الشعري 200 قصيدة ما بين عمودية وتفعيلة وشعبية، وبعض المسرحيات، نال عدة جوائز في المسابقات المحلية والوطنية والدولية، منها الجائزة الأولى في الشعر بالمهرجان الدولي للرواية بن هدوقة 2010.

[23] مبروك بالنوي، من أغاني الطاسيلي، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط:01، 2017، ص09.

[24] المرجع نفسه، ص11.

[25] المرجع نفسه، ص12.

[26] المرجع نفسه، ص72.

[***] مصطفى صوالح محمد شاعر من ولاية وادي سوف، له العديد من الأعمال منها: (أساطير المنفى)، (قراءة في الكف الريح)، (فوق كل اللغات)، (فسيفساء البحر) وغيرها.

[27] مصطفى صوالح محمد، كيف يحترق الظمأ...؟؟، مديرية الثقافة، ولاية الوادي، الجزائر، (دط)، 2017، ص15.

[28] المرجع نفسه، ص16.

[29] بشير ميلودي، مرجع سابق، ص12.

[30] المرجع نفسه، ص12.

[31] المرجع نفسه، ص13.

[32] ينظر: محمود رجب، مرجع سابق، ص7.

[33] مصطفى صوالح، مرجع سابق، ص39.

[34] المرجع نفسه، ص39.

[35] المرجع نفسه، ص40.

[36] المرجع نفسه، ص41.

[37] المرجع نفسه، ص42.

[38] المرجع نفسه، ص43.

[39] محمود سليم هياجنة، مرجع سابق، ص16.

[40] بشير ميلودي، مرجع سابق، ص38.

[41] المرجع نفسه، ص38

[42] المرجع نفسه، ص39.

المراجع:

1. بشير ميلودي، بقايا من شرود الضوء، مديرية الثقافة، ولاية الوادي، الجزائر، ط:01، 2014.
2. مبروك بالنوي، من أغاني الطاسيلي، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط:01، 2017.
3. مصطفى صوالح محمد، كيف يحترق الظمأ...؟؟، مديرية الثقافة، ولاية الوادي، الجزائر، (دط)، 2017.

4. أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط:10، 1994.
5. جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار التنوير، بيروت، لبنان، ط:02، 1983.
6. الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد. الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، : أنس محمد الشامي، زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، مصر، (دط)، 2009.
7. حسن حماد، الإنسان المغترب عند إيريك فروم، مكتبة دار الحكمة، مصر، (دط)، 2005.
8. حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية –متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط:01، 2006.
9. غاستون باشلار،جماليات المكان، المؤسسة الجامعية للدراسات النشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط:02، 1984.
10. محمد صديق حسن عبد الوهاب، الصحراء في الشعر الجاهلي (أطروحة دكتوراء في الأدب والنقد)،قسم الدراسات الأدبية والفنية، كلية الدراسات العربية، جامعة أمدرمان الإسلامية، 2008.
11. محمود رجب، الاغتراب سيرة مصطلح، دار المعارف، مصر، ط:03، 1988.
12. محمود سليم هياجنة، الاغتراب في القصيدة الجاهلية- دراسة نصية، دار الكتاب الثقافي، الأردن، (دط)، 2005.
13. مسعود جوادي، الصحراء في الشعر الجاهلي بين التلقي الاستشراقي والتلقي العربي (مذكرة ماجستير)، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر، 2009.
14. يحيى أحمد الزهراني، الصحراء في الشعر السعودي (أطروحة دكتوراء)، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 2002، ص55، 56.
15. يحيى العبد الله، الاغتراب –دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلّون الروائية، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، الأردن، ط:01، 2005.